

مستقبل اللغة العربية

بقلم الدكتور أحمد

بن نعمان

عضو المجلس الأعلى

للغة العربية

لا توجد لغة في العالم فيما نعلم - قديما وحديثا - تحمل من مقومات البقاء والصمود في الوجود ما تحمله اللغة العربية، وذلك لأسباب جغرافية وتاريخية وديمغرافية وحضارية واجتماعية ودينية مكنتها من البقاء شامخة أمام مختلف الأعاصير والعواصف، وحصنتها ضد التبذل والتحول والذوبان في لغات الشعوب الأخرى وأمدتها بالقوة الفائقة على التكيف مع الظروف المستجدة في الميدان، على امتداد القرون المتعاقبة في الزمان والأقطار المستعربة المتجاورة في المكان، والشعوب المكبلة والمغلوبة على أمرها في الأوطان...

فإذا كان للغة العربية نظريات عديدة تشترك معها في الأصل السامي إلا أنها تميّزت عليها جميعها بالمحافظة على أقوى الروابط التي تصلها باللغة الأصل، ويرجع ذلك إلى بقاء العربية في حالة عزلة - شبه تامة - في الجزيرة العربية التي ظلت إلى حين الدعوة المباركة

غير ذات صلات قوية بالعالم الخارجي، مما يمكن أن ينتج عنه تأثير فيها، وبعد انتشار الإسلام الذي كانت اللغة العربية أقوى وسائل تبليغه للشعوب المختلفة شرقاً وغرباً، عرفت هذه اللغة أول احتكاك فعلي لها باللغات الأجنبية، وكان من المفروض أن تتأثر متأثراً يصل إلى درجة الذوبان في اللغات الأجنبية الأخرى لما كانت عليه تلك اللغات من رقي في ذلك الوقت كالفارسية والقبطية والرومانية، إلا أنها لم تتأثر أكثر مما أثرت هي في تلك اللغات الراقية، مع المحافظة على بناياتها بكيفية تبعت على الاستغراب لولا معرفة السر في ذلك كله، وهو ارتباطها بكلام الله المقدس الذي حفظها كما حفظته من التبدل والتحول مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وجعلها تؤثر ولا تتأثر إلا بالقدر الذي لا يمسّ جوهرها وبناياتها الأساسية على الرغم من الصراعات العديدة والغبطة التي وقعت بينها وبين تلك اللغات التي كانت سائدة في البلدان المفتوحة، وقد أكد هذه الحقيقة التاريخية أحد العلماء الألمان بقوله: "... إنَّ العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي لهذه الحقيقة الثابتة وهي أنها قامت في جميع البلدان العربية وما عداها من الأقاليم الداخلة في المحيط الإسلامي رمزاً لغويّاً لوحدة العالم الإسلامي في الثقافة والمدنية، ولقد برهنت هذه اللغة بما حفظته للإنسانية من تراث حضاري خالد على أنها أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحتها عن مقامها".¹

وهذه الشهادة التي أتت من عالم لا يربطه بالعربية إلا الموضوعية والنزاهة العلمية تتفق مع ما ورد بعد ذلك بسنوات في

كتاب مجمع اللغة العربية بالقاهرة تحت عنوان اللغة العربية لغة عالمية ما نصه: "تساءل الناس منذ ربع قرن أو يزيد عن موقف العربية من اللغات العلمية الكبرى، فعدها قوم واحد منها، وأنكر عليها ذلك أقوام آخرون، وسبق أن أثبتت أنها كانت في الماضي ولعدة قرون اللغة الوحيدة للعلم والفلسفة في العالم بأسره من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ثم انضمت إليها اللاتينية فأخذت منها واتجهت عن طريقها إلى كنوز الحضارات القديمة... وبرهنت على أنها جديرة على أن تستعيد مجدها وليس من طبيعتها ما يعوق مطلقا دون أن تؤدي كل متطلبات العلم والحضارة، ومنذ النصف الأخير من القرن الماضي أخذت تجدد نشاطها وتتدارك ما فاتها، وحظيت أخيرا بإنتاج وفير ومتنوع وأقامت العربية الدليل على حيويتها وعلى قدرتها على البقاء، ولم تجد الهيئات بدا من أن تعترف بها وتقدرها قدرها، وأصبحت العربية في السنوات الأخيرة تقف على قدم المساواة في المؤتمرات والاجتماعات الدولية مع اللغات العالمية الكبرى..."ⁱⁱ.

هذا عن اللغة العربية في ذاتها كأداة حضارية ذات عبقرية فذة فرضت نفسها على الأعداء رغم عقوق وخذلان بعض الأبناء والأشقاء!!

أما عن آفاق هذه اللغة وإمكان انتشار رقعتها في المستقبل عبر كافة الدول والقارات التي يسمع فيها صوت بلال بدأ بالقارة التي ينتشر فيها لونه، وهي القارة السمراء البكر العذراء التي لم تعرف لغة حضارية ذات تراث مكتوب بغير لغة القرآن التي دخلت الديار مسالمة هادية،

فانفتحت لها القلوب والأفكار قبل أن يزيل عفافها فلول الغزاة الإفرنج الذي تخصصوا في تحطيم الإنارة، واستئصال الحضارة، واسترقاق التجارة، واستبدال العبارة، وما برحوا يزرعون الفتن والبغضاء بين الأشقاء، ويقدمون أبناء القارة قرايين رخيصة على مذابح المصالح الاستعمارية (الفرنكوفونية والأنجلوفونية) على غرار ما فعلوا في الديار الرواندية والكونغو "الانشطارية" في السنة الماضية!

وحول إمكانية استرجاع اللغة العربية مكانتها الطبيعية في القارة الإفريقية وتبوءها مقعدها في الإدارة والجامعة بعد الجامع والشارع، (رغم الصراع الأنجلوفرانكوشوني) الذي خلق كل هذه الفضائح والفضائع المريبة والرهيبة التي ما يزال كابوسها جاثما على صدور الأحرار في تلك الأقطار، كتب الأستاذ أحمد بهاء الدين منذ ربع قرن ما نصّه: "... والأمة العربية ليست كيانا سياسيا فقط، بل هي قبل ذلك كيان حضاري لديها فرصة نادرة لأن تكون لغتها سلاحا من أمضى أسلحتها في كل معاركها ووسيلة خلاقة للمساهمة في صراع الحضارات العالمية الراهن ... ففي الصومال استقرت اللغة الإيطالية وأريد لها أن تمحو اللغة العربية تماما كما حاولت فرنسا في الجزائر، وإدراكا من تلك الدول الأوروبية أن إقامة حاجز اللغة هو إقامة الستار الحديدي الطبيعي النهائي، بين شعب وجيرانه وصار من قبل ذلك الصومال صومالا إيطاليا وصومالا فرنسا وصومالا إنجلترا وصومالا إثيوبيا ... وبعد الحرب العالمية الثانية أضيف لإثيوبيا فوق الأقاليم - أريتيريا، وعادت فرنسا إلى الصومال الفرنسي (جيبوتي) ووضع الصومال الرئيسي

(الإيطالي) تحت وصاية الأمم المتحدة، ومثلت الأمم المتحدة بلجنة ثلاثية (مصري وإيطالي وإنجليزي) وأهم معركة دارت خلال وصاية الأمم المتحدة كانت حول اللغة العربية، فتقرير نوع اللغة التي سيتحدث ويتعلم بها الشعب هو تقرير هويته واتجاهه الحضاري، وتكوينه النفسي، وكان من هم الغرب أن يختار الصوماليون اللغة الإيطالية، فهي لغة أوروبية على أية حال، وبصماتها بعد الاحتلال كانت واضحة (شأن اللغة الفرنسية في بلدان المغرب العربي في الوقت الحاضر). وكل شباب الصومال كانوا لا يتعلمون إلا في جامعات إيطاليا، ولكن الرغبة الشعبية، العارمة كانت اختيار اللغة العربية، ولأن مندوب مصر في لجنة الوصاية الدولية كشف كل المناورات فقتل اغتيالاً وكانت مطاردة اللغة العربية في هذه البلاد هدفاً أهم فأوجد الغرب من يدعون إلى اللغة السواحلية تحت غطاء إثارة نغمة إقليمية ورغم أن الاستفتاء دلّ على تفضيل الشعب اللغة العربية فقد أثار الغرب تفضيل اللغة السواحلية المكتوبة بالحرف اللاتيني!!

وحين دخلت الصومال جامعة الدول العربية سنة (1974) كان يجب أن يطلب منها الارتباط ببرنامج تعريب لأنها جامعة دول (عربية) ومن اتّصل بهذه الحركات وقابل زعمائها وشبابها المثقف يعرف أن اللغة العربية كانت بالنسبة لهم أحد أقوى الروابط والوشائج وحوافز الأمل في التحرر واستيراد شخصيتهمⁱⁱⁱ.

ويؤكد هذا التحليل تقرير لمجمع اللغة العربية بالقاهرة حيث ورد فيه ما نصه: " ... وهناك دول إفريقيا في بلبلة من أمر لهجتها

المتعددة، وفي وسع العربية أن تحل محل كثير من هذه اللهجات برغم النزعة الأنجلوفونية والفرنكوفونية ويفد الآن على الجامعات العربية عدد غير قليل من الشباب الأفارقة لتعلم اللغة العربية، ولهم دون شك دور في نشرها في بلدانهم، واستطاعت اللغة السواحلية منذ زمن أن تكون همزة وصل بين كثير من شعوب إفريقيا وقبائلها وهي لغة تربطها بالعربية وشائج كثيرة^{١٧}.

ويؤكد هذا المسعى الاستراتيجي الطيب لنشر اللغة العربية في إفريقيا الإسلامية بكيفية طبيعية وفعالة في إطار الأهداف السامية للعقيدة السمحاء والتي عمت معظم بلدان القارة في زمن قياسي بفضل الدعوة الصادقة للعلماء، والقُدوة الحسنة للدعاة إلى دين الحق في سبيل الله بعيدا عن السياسة والاستحواذ والسيطرة والاستبعاد التي تشهدها القارة في الوقت الحاضر كما سبقت الإشارة... في هذا الإطار الاستراتيجي الثقافي والحضاري المحض ينصح الأستاذ أحمد بهاء الدين الزعماء العرب بقوله: " واني أسمح لنفسني أن أروي أنني منذ سنوات قلت لبعض زعماء الدول العربية أن هناك خدمة بسيطة جدا، ولكن أثرها الاستراتيجي بالنسبة للأمة العربية لا يقدر بثمن وهو الاتفاق والنضال من أجل نشر اللغة العربية على طوال الحزام الإسلامي في إفريقيا، والتشاد، وغينيا، وشمال غانا ونيجيريا وجنوب السودان المسيحي والصومال بفروعه المبعثرة... فاللغة العربية أقرب إليهم، وأسهل لهم ولم تفرض يوما بالقوة عليهم مثلما فرضت عليهم الإيطالية

والفرنسية والإنجليزية، وقد حاولت بعض الدول العربية محاولات في هذا المجال".^٧.

هذا عن إمكانية انتشار اللغة العربية في البلدان الإفريقية غير العربية ولكن لغة التنزيل الحافظة للرسالة الخالدة والمحفوظة فيها وبها، لا تحدها حدود على وجه المعمورة، وخاصة في عصر السرعة وطى المسافات الضوئية في لحظات، عن طريق الأقمار الاصطناعية، والهوائيات المقعرة والخطب المنبرية، والدروس الحسنة، والمحاضرات العلمية باللغة العربية في جميع التخصصات والمجالات التي تهم الإنسان المعاصر في أدق تفاصيل حياته الدينية والاجتماعية، والسياسية من "ستوكهولم" إلى "مالبورن" كما نشاهد تدخلات المشاهدين على عشرات الفضائيات العربية التي تلبي كل الطلبات وتغطي كل الأذواق مع المحافظة على القاسم المشترك بينهما، وهو لغة الضاد بقطع النظر عن المحتوى والمستوى!!

مما يدلّ عل أن إمكانية الانتشار للغة العربية في القرن القادم ليس مقصورا على البلدان الإفريقية ذات الأغلبية المسلمة أو التي ليس لها لغات حية موحدة فحسب، بل تمتد هذه القابلية للانتشار إلى إسلامية أخرى في آسيا وحتى أوروبا التي ينتشر فيها الإسلام بكيفية مذهلة لأهلها، بقدر ما هي مطمئنة ومريحة لأهلنا، في العقيدة هناك، حيث لا نكاد نجد مسجد في تلك البقع الصليبية التي يزداد عددها بالآلاف سنويا، لا ينظم إمامه الناطق بالعربية دروسا في هذه اللغة

الوارثة... والتي يتابعها حتى غير المسلمين من الطلبة ورجال الأعمال الذين تستهويهم الصفقات العربية المربحة.

وإذا كان هذا شأن اللغة العربية في القارة التي كانت صليبية إلى حين فمن باب أولى وأحرى أن تتوقع ازدهارا وانتشارا أوسع للغة العربية في البلاد الإسلامية في القارات الأخرى وخاصة آسيا، ففي إيران (وخاصة بعد الثورة الإسلامية) وأفغانستان وباكستان وأندونيسيا وماليزيا (التي تأسست بعاصمتها سنة 1994 جامعة إسلامية عديدة تدرس باللغة العربية في بعض تخصصاتها) تعتبر اللغة العربية في هذه البلدان ذات مكانة مفضلة بين جميع اللغات الأجنبية بالنسبة للمسلمين على وجه الخصوص، كما أنها تدرس في مراحل التعليم في بعض تلك الأقطار مثل إيران وخاصة باكستان التي يعرف الجميع رغبة هذا البلد الإسلامي النووي الكبير (إثر انفصاله عن الهند سنة 1947) في اتخاذ اللغة العربية لغة أصيلة إلى جانب الأردية ولو أعانتها البلاد العربية حينئذ لكانت اللغة العربية هناك هي اللغة الأولى بدل الإنجليزية السائدة علميا وإداريا في الوقت الحاضر... مع العلم أن هذا البلد مازال دائم الرغبة في التعرب، والمطالبة من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بإمداده بالخبراء وأساتذة اللغة العربية قصد مساعدته على نشر اللغة العربية على نطاق واسع وتحقيق التعريب الحضاري الشامل في ربوعه مما يؤكد نبوءة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي تحدث عن دور مستقبلي واعد لهذا البلد الإسلامي الكبير في حضيرة الأمة إثر زيارته له دامت خمسة أشهر قام بها سنة 1955.

هذا المثال عن انتشار اللغة العربية في الدول الإسلامية الآسيوية، والتي تعتبر - كما قلنا - مسألة عادية وطبيعية، ولكن الشيء الملفت للانتباه وغير العادي هو انتشار اللغة العربية في بعض الدول (الأوروبية الشرقية) وكنموذج لذلك نذكر يوغسلافيا سابقا (البوسنة والهرسك وكرواتيا والجبل الأسود ومقدونيا وكوسوفو حاليا) حيث ورد على لسان مفتي الإسلام الشيخ حمدي يوسف شباهيتش وبالعربية الفصحى في تحقيق صحفي حول هذا الموضوع، أجرته مجلة العربي سنة 1978 قوله حرفيا: "يكفي أن أذكر لكم أننا شيدنا في مختلف أنحاء يوغسلافيا أكثر من ستمائة مسجد جديد منذ 1960 حتى اليوم، هذا عدا المساجد التي تمّ ترميمها وتشييدها وهي التي كانت موجودة قبل هذا التاريخ ويزيد عددها على الألفي مسجد وفي كل منها مدرسة أو كتاب لتعليم القرآن باللغة العربية، ومن هنا تبرز الحاجة الملحة إلى نشر لغة القرآن الكريم في هذه الربوع". وورد في نفس التحقيق على لسان الدكتور أحمد اسماعيلوفيتش أحد القيادات الإسلامية في البلاد ما نصه: "إن الحضارة الإسلامية العربية في يوغسلافيا قديمة وهي ليست غريبة ولا جديدة على أوروبا... قبل ضياع الأندلس كانت أوروبا كلها تتجه للعرب وحضارتهم، وقد أثرت هذه الحضارة في النواحي الفكرية والمادية في أوروبا حتى بعد خروج العرب من الأندلس... وعندما زار الرئيس جوزاف بروز تيتو القاهرة سنة 1971، كنت حينذاك مديرا للمدرسة اليوغسلافية في القاهرة سألني عما إذا كان أبنائنا يدرسون اللغة العربية في برنامجهم الدراسي فأجبت

بالنفي فقال تيتو: لا بدّ من أن تكون ضمن البرنامج لأنّي أن يتعلم
أبنائنا اللغة العربية لأنّها لغة المستقبل^{vi}.

وعن انتشار اللغة العربية في ألمانيا وروسيا يقول الدكتور
إبراهيم مذكور: "فقد قدر لي أن أزور ألمانيا الشرقية عام 1969
وقضيت بعض الوقت في إحدى مدنها الكبرى، وهي مدينة لايبزج،
فلاحظت الاهتمامات في قسم الدراسات العربية بجامعةها، منصبه فيها
على اللغة العربية... ويضيف قوله وتعمّر بعض الجامعات الأوروبية
والأمريكية بنفر من الأساتذة العرب يقومون على أمر الأدب والثقافة
العربية الإسلامية، ولست في حاجة أن أشير إلى تلك المعجزات
الثنائية الكثيرة التي ظهرت في روسيا في العشرية سنة الأخيرة، وهي
تجمع بين الروسية والعربية وتنصب على اللغة تارة أو على العلم
والتكنولوجيا تارة أخرى"^{vii}. ويقول من مكان آخر: "وعلى الصعيد الدولي
استعادت العربية مكانتها وبرهنت على أنها جديرة بأن تقف في مصاف
اللغات العالمية الكبرى، فهي لغة علم وأدب وفكر وحضارة اتسع صدرها
لكل جديد، وقد استخدمت الحاسبات الإلكترونية في دراستها"^{viii}.

وبناء على ما تقدم أقول بأن هناك ثلاث لغات ستسود العالم
أكثر من غيرها في القرن القادم، وهي الصينية بسبب الديمغرافيا،
والإنجليزية بسبب التكنولوجيا والعربية بسبب الإيديولوجيا (الإسلام)،
وإذا تحقّق التعريب الحضاري الذي يطمح إليه المخلصون من أبناء
الأمة مشرقا ومغربا، فإنّها ستصبح لغة تكنولوجيا أيضا وليس في
ذاتها ما يحول دون ذلك كما سبقت الإشارة بالدليل القاطع والبرهان

الساطع... لتعود إلى حالتها الطبيعية التي كانت عليها لعدة قرون، كما أقر بذلك رئيس الجمهورية الفرنسية (فرانسوا متييران) بقوله: "لقد تحدثنا عن هؤلاء العلماء العرب الذين كانوا يمثلون همزة وصل بين ثقافتين، ومن المفيد أن نذكر هنا ما تدين به أوروبا والحضارة الغربية من فضل للفلاسفة والرياضيين والأطباء العرب وكذا للاختراعات الباهرة التي قاموا بها وقد سجلها لهم التاريخ بأحرف بارزة..."

لقد كان دائما لدينا شغف كبير بحضارتكم أيها الأصدقاء العرب وقد قرأت حديثا أنه وتحت حكم فرانسوا الأول (أي في القرن السادس عشر) كان يوجد في معهد فرنسا منبر للغة العربية، وقد عملنا وسنعمل في المستقبل على تحقيق أحسن من ذل "ix". هذا من ناحية التكنولوجيا أما من ناحية الديمغرافيا، فهي زيادة عن كونها لغة عقيدة ورسالة خالدة مرتبطة بالعالم العلوي يربو معتقوها (الذين يزدادون كثرة وانتشارا يوما بعد يوم في جميع القارات) عن عدد سكان الصين أنفسهم في الوقت الحاضر، وما نأمله هو أن يرقى العرب حكاما ومحكومين إلى مستوى لغتهم ويعملوا على تحقيق الكيف بعد هذا الكم المضمون لضمان المستقبل لهذه اللغة المعجزة التي ينتسبون إليها جغرافياً، وتاريخياً، وحضارياً، رغما عنهم ورغما عنها!!

□ — يوهان فك، العربية، ترجمة د. عبد الرحمن النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة 1951،

□□ — من كلمة الدكتور إبراهيم مذكور رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته المنعقدة في
1976/02/23.

* — هو السفير كمال الدين صلاح، وقد أقام له الصوماليون بعد ذلك تمثالا في العاصمة مقديشو.

□□□ — مجلة العربي، العدد 233، أبريل 1976.

□□ — تقرير مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الثانية والأربعين المنعقدة في
1976/02/23.

□ — مجلة العربي، العدد 233 أبريل 1976.

□□ — مجلة العربي، العدد 833، أبريل 1978.

□□□ — كتاب الدورة 43 للمجمع اللغوي بالقاهرة، طبعة الهيئة العامة للشؤون 1978،
ص 16.

□□□□ — نفس المرجع، نفس الصفحة.

□□ — من خطابه بمناسبة تدشين معهد العالم العربي، باريس في 1990/01/10.